جداريات عبد السلام عيد تحرّر اللوحات «الأسيرة»

هل تتمكن الجداريات الطليقة من أن تحل مكان اللوحة التشكيلية أسيرة جدران صالات العرض والمتاحف؟ سؤال يشغل بال أستاذ التصوير في كلية الفنون الجميلة في جامعة الإسكندرية وفنان الجداريات عبد السلام عيد الذي يرى أن الجدارية يمكنها أن تقدم شرائح ميكروسكوبية رمزية تشكيلية للتفاعلات الإنسانية. فهي تحوّل فضاء المرافق العامة إلى مساحات تشكيلية ولونية مليئة بالحياة، وتحمل أحلام ورؤى وأفكار المتلقي ما يجعله يعيد اكتشاف العالم والآخرين من حوله.

يعتبر عيد الحاصل على عشرات الجوائز الدولية والعربية أن «في امتداد الجدارية الفنية ووقوفها في الفناء، معادلاً موضوعياً لامتداد تاريخ الأمة العربية وقضايا الشعوب، فهي فن قديم جداً، يتناول تراث الشعوب وتاريخها وفكرها لما تحمله من رسائل مهمة».

ويشرح الفنان الذي تعرف مدينتا نانت وليون الفرنسيتان جداریاته الضخمة أنه «من الممكن أن تكون الجدارية مثيرة ومذهلة وهادئة، أو تحريضية». وهو يسعى لفك طلاسم قضايا مجتمعية شائكة من خلال جداریاته، مستلهماً الحل من التاريخ أو مستشرفاً إياه من المستقبل. فتتحول الجدارية إلى لوحة فسيفسائية عملاقة، ترصّعها أشكال هندسية فريدة، تطرح مقامات بصرية متفاعلة مع عوالم بحث وتجريب ذات أبعاد ورؤى وتوصيف للواقع واستشراف للمستقبل.
«الجدارية هي أسهل وسيلة يمكن للفنان من خلالها أن يشارك فيها شعبه ويعبّر عن همومه»، يقول عيد الذي أعاد الحياة لكثير من ميادين مدينة جدة بجداریاته. ويضيف: «الجدارية ما هي إلا لوحة في الفضاء العام تخاطب جمهوراً عادياً مختلفاً في توجهاته ورؤاه وأيديولوجياته ومستوى ثقافته، الأمر الذي يتطلب استخدام رموز يسهل فهمها والتعاطي معها دون تعقيد ومبالغة».

ولأن الجداريات أكثر الوسائل الفنية تأثيراً في ذائقة المتلقي البصرية، لكونه يصادفها يومياً في الطريق وليس مضطراً لزيارة صالة عرض ليراها، ينصح عيد فناني الجداريات أن يتعاملوا مع هذا الفن بدقة وبساطة وحرفية عالية لأنه يُعيد صياغة قناعات المتلقي الفنية والمجتمعية».

الغرافيتي لا يستمر والجدارية خالدة

وعن الفرق بين فن الجدارية وفن الغرافيتي الذي سطع نجمه عقب «ثورة 25 يناير»، يوضح عيد أن «الغرافيتي فن تحريضي ومرتبط بحدث معين، ولا يكتب له الاستمرار لأن التقنيات المستخدمة فيه تكون غير معالجة لمواجهة تقلبات العوامل الجوية، بينما الجداريات فن له أصول وقواعد وتستخدم فيه خامات تقاوم العوامل البيئية ليكتب له الاستمرار والخلود لعقود طويلة».

عيد الذي يصفه النقاد في جرأته بزيغفريد العرب بسيفه الشهير الذي لم يعرف الخوف ويقفز فوق حدود الأطر والقوالب العادية، يرى أن الفنان يبتدع العالم الذي يعيش فيه باحثاً دائماً عن طرائق ووسائل ومعالجات لونية تساعده في التعبير بصدق عن رؤيته لذاته ولمجتمعه وللعالم من حوله.

ويقول عيد: «قدري أن أكون حائراً ومتسائلاً ومتفاعلاً باستمرار مع العالم الذي يحيط بي، ومنذ البدايات الأولى اكتشفت أنني مشدود إلى عالم سحري غامض». ويضيف: «أنا مشبع بالحياة بكل معالمها وتأثيراتها التاريخية والطبيعية».

وعن أهم المدارس الفنية التي يتوقف عندها، يوضح أنه على رغم تأثره بمختلف المدارس الفنية في الشرق والغرب، فهو دائم التوقف عند المستقبلية والتجريدية والتعبيرية، حيث يستخلص في كثير من أعماله الشاهقة القيم الجمالية المستمدة من وحدات التراث العربي والإسلامي، مستكشفاً جماليتها وأبعادها الفلسفية والفنية، وموظفاً إياها بصورة مباشرة وصريحة أو بصورة مجردة ورمزية أو بشكل تعبيري.

فنان الجداريات العملاقة والملقب بـ «خبير تجميل المدن» من قبل منظمة المدن العربية، يفيد بأنه يحاول أن يحقق ذلك المزج الصعب بين القيم المجردة للوحة التشكيلية وبين القيم المضامينية للوحة الجدارية».

وعن أحدث جدارياته والتي كشف الستار عنها أخيراً في منطقة مصطفى كامل على كورنيش الإسكندرية مباشرة، يشرح أنها تعكس الطبيعة الكوزموبوليتانية التعددية لمدينة الإسكندرية الساحلية حيث يحتضن البحر بأمواجه الزرقاء المتلاحمة وزبده الأبيض، إناء فسيفسائياً من الآنية المقدسة الرومانية الشهيرة، وتاج أحد الأعمدة الفرعونية المزين بزهرة اللوتس المصرية الشهيرة. وناحية أخرى تحتضن الجدارية أجنحة حورس المقدس مياه البحر الذي تتماوج فيه مقدمة سفينتين ويلوح في الأفق البعيد طيور النورس، باسطة أجنحتها وهي في طريقها لتحط على قلعة قايتباي الشهيرة في المدينة.

وعلى رغم أن الجدارية تبدو بسيطة ومباشرة، لكنها جمعت لغات بصرية متعدّدة، فهي تتكوّن من جزئيات تشمل أيقونات وأشكالاً أسطورية ورسومات تعبيرية، يصعب تفسيرها. لكنها تحمل علامات تشكل نسيجاً بصرياً يعيد صياغة ثقافة مصر والعالم بقراءة العلاقات التبادلية بين مفرداتهما الثقافية. وتمثّل عناصر المزاوجة والتفكك التي تربط الثقافات وتفرقها في آن واحد.

Tags not available